ألبانيا بعد البوسنة(*)

١

كانت حرب البوسنة التي لم تلتئم جراحها الغائرة بعد بداية تفجير حوض البلقان بهدف بعثرة المسلمين وتشتيتهم وتمزيق جميع أقاليمهم و«كياناتهم»... تمهيداً لتذويبهم أو استيعابهم في أوروبا المسيحية، أو ضمن الحضارة الغربية وتقاليدها الثقافية. ولا يخفى على الناظر في مجريات الحرب البوسنية الأخيرة وموقف الدول الأوروبية وبخاصة روسيا وبريطانيا، ومن ورائها ما يسمى الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي أن هذه الحرب كانت حرباً صربية أوروبية بكل معنى الكلمة، ولم تكن حرباً صربية كرواتية فحسب.

فلولا التقاعس الأوروبي والبرود القاتل الذي واجهت به أوروبا زحف الصرب على المدن والقرى والجيوب البوسنية – التي جرّدها مجلس الأمن من سلاحها ثمناً لإعلانها مناطق آمنة – لما تمكنت الوحوش الصربية من الفتك بالمسلمين هذا الفتك تقتيلاً وتمثيلاً واغتصاباً وتقطيعاً للأوصال وحرقاً للمزارع والديار، في الوقت الذي بقي فيه مجلس الأمن مصراً على منع

(*) نشرت بتاريخ ١٩٩٧/٣/٢٤م.

وصول السلاح إلى المسلمين للدفاع عن أنفسهم وحماية أعراضهم وديارهم!! فهل رضيت أوروبا واستراحت ضمائر الأوربيين وهم يرون الكيان الإسلامي في البوسنة يتقلص وينكمش، والكيان الصربي يتمدد ويتسع، في الوقت الذي قرن فيه هذا الوجود المتبقي للمسلمين بالكروات تمهيداً للقضم النهائي والتذويب الأخير؟

واليوم يأتي دور ألبانيا ودور إقليم كوسوفو الألباني الذي كان قد ضم إلى الصرب في وقت سابق وإقليم السنجق، وسائر الوجود الإسلامي في البلقان وجنوب شرق أوروبا.

لا بد لمن يريد التعليق اليوم على أحداث ألبانيا من أن يتذكر إرهاصات هذه الأحداث، والإشارات التي وردت على الألسنة، بالإضافة إلى الممارسات المتعلقة كلها بالشأن الألباني في ألبانيا وكوسوفو والتي صاحبت حرب البوسنة ومشت في ركابها. فضلاً عن المقدمات التي كانت تشير إلى أن ما جرى على البوسنة سوف يجري على ألبانيا وسواها في هذا الحوض المتفجر. وبالرجوع إلى الملف البوسني لاستعراض هذه المواقف والوقائع والتصريحات، وهي كثيرة وصريحة أو شديدة الوضوح، يحار المرء في تفسير هذا الموقف السلبي للألبان أنفسهم من جهة، وموقف العرب والمسلمين المماثل من جهة أخرى. وفي جميع الأحوال يشعر المرء أو يتحسس – ولا يكتشف – أن الجروح التي خلفتها حرب البوسنة في النفس،

والممزوجة بالغضب والألم الدفين، لما تلتئم في حين بدأت أحداث ألبانيا تنكأ هذه الجراح والآلام من جديد. يالبؤس المسلمين وطول ليلهم وشقائهم وهوانهم على أنفسهم! ورحم الله أبا الطيب حين يقول:

فصرت إذا أصابتني سـهـام تكسّرت النصال على النصال

أوجز فيما يلي في بضعة أسطر عناوين أحداث البوسنة، لأن هذه الأحداث عادت للظهور مرة أخرى مع بداية أحداث ألبانيا، وقد تختلف بعد أيام طريقة الخداع وعناوين الإخراج: لقد شنت الأمم المتحدة على الصرب حرباً على الورق، بحسب عبارة إذاعة سيراجيفو. وشنت حكومات العرب والمسلمين حرباً كلامية أو على موجات الأثير. وحين اجتمعت وانفضت – وعددها يربو على الخمسين وتحت يدها من المقدرات مالا يجهله أحد – لم تفعل شيئاً سوى أن طلبت أو استجدت من مجلس الأمن الدولي أن يرفع حظر التسليح عن البوسنة... ولم يفعل بطبيعة الحال.

لقد اندفعت الذئاب الصربية لتذبح وتقتل أكثر من مائتي ألف مسلم، ولتقوم بأبشع عملية اغتصاب وحشي في تاريخ «الجنس البشري» راح ضحيّتها أكثر من خمسين ألف فتاة وامرأة، وخلفت وراءها عاهات وأمراضاً عقلية ونفسية وآلاماً لا تحد، أو لا يعلم مداها إلا الله. وكأني بالمسلمين وقد ماتت فيهم النخوة والرجولة – إلا من رحم ربك – أضاعوا كل

شيء... حتى الشرف!

ملف البوسنة رهيب، وسوف تبقى أحداثه عاراً في جبين العرب والمسلمين حكاماً ومحكومين، وفي جبين الإنسانية جمعاء يقرأ فيه من يقرأ في قادمات الأيام أن الإنسان انقلب وحشاً أو قام بما لا تقوى على القيام بمثله الوحوش. ويزعم جيلنا بعد ذلك أنه يعيش في عصر الحضارة والتقدم وحقوق الإنسان!! أي حضارة وأي تقدم وأي دعاوى عريضة مضحكة ومبكية يتشدق بها عن حقوق الإنسان من يتشدق، ويصدقها من المغفلين والناعقين من يصدق؟

٢

أبدأ في التعليق على أحداث ألبانيا بالإشارة إلى أن التقاطعات الدينية المذهبية والعرقية في هذه الحرب البوسنية المفتوحة لم تحجب في معظم المراحل والأدوار الروح الصليبية التي حكمت علاقة الأطراف المختلفة بالإسلام والمسلمين. وأعتقد أن التصريحات والممارسات في هذا أكثر من أن تحصى.

والمشكلة التي واجهتنا في الحرب البوسنية – والتي نخشى أن نواجهها في حرب ألبانيا، وغداً في حرب كوسوفو أو السنجق أو مقدونيا – أننا قابلنا هذه الروح الصليبية التاريخية الحاقدة بالروح العلمانية، بل بالروح التي تخشى من الصعود الإسلامي في أوروبا بحسب عبارة بعض الكتاب، فضلاً عن

خوفنا من هذا الصعود في بلادنا العربية والإسلامية. فهل بلغت بنا التبعية والعمالة أو عمى الألوان أو الحقد على الإسلام إلى هذا الحد؟ وما الفرق بيننا وبين الصرب والأوروبيين في هذه الحالة إذن؟ أستعيد هنا ما حدثني به أحد الزملاء الأفاضل في الجامعة، وهو من المعنيين بمطالعة الصحف اليومية الفرنسية، أن واحدة من كبريات هذه الصحف – وأظنها اللوفيغارو – ذكرت أن رئيس دولة عربية كبرى وقد كان يزور باريس «نبه» أولفت نظر الرئيس الفرنسي إلى خطورة الاندفاع في الوقوف إلى جانب البوسنة والهرسك، لأن هذا قد تكون عاقبته قيام دولة أصولية في أوروبا!!! وأن الرئيس الفرنسي شكره على هذا الذي لم يلتفت هو إليه. ما دور هؤلاء السياسيين العرب والمسلمين؟ وكيف يخطر ببال أحدهم أن يصفي حسابه مع حركات المعارضة الإسلامية أو سواها بمثل هذا التحريض على ترك المسلمين في البوسنة عرضة لتلك الأهوال وهم لا يملكون من السلاح والعتاد والمظاهرة الدولية ما يملكه جيش الصرب والعصابات الصربية التي ورثت سلاح الجيش اليوغوسلافي أو آل إليها!

وهل بتنا نخاف من «الأصولية الإسلامية» – بحسب عبارتهم – أن ترد علينا من البلقان أو تهبط علينا من السودان أو من أي بقعة من بلاد العروبة والإسلام؟ فنسعى إلى حربها وتطويقها والتخويف منها؟

أمامي الآن أعداد من الصحف الصادرة يوم الخميس ٢٥ جمادى الأولى ١٤١٣هـ الموافق ١٩ تشرين الثاني – نوفمبر ١٩٩٢ ومنها صحيفة «الحياة» التي حوت صفحتها التاسعة من الأخبار والتعليقات والمقابلات ما يلخص طرفاً هاماً من أحداث هذه الحرب بوجه عام، وما يشير إلى مسألة الصعود الإسلامي المشار إليه بوجه خاص.

أحد العناوين الكبيرة يقول: استمرار الهجمات الصربية على غرداجاتش ونداء من قيادتها لرفع الحظر على الأسلحة. ومما جاء تحته أن «إذاعة ساراجيفو ذكرت أمس أن القوات الصربية شنت هجمات ضارية بالمدفعية والمشاة على عدد من مدن البوسنة خصوصاً مدينة غرداجاتش الشمالية المهددة بالاجتياح على رغم وقف إطلاق النار الذي أعلنته الأمم المتحدة في عموم البوسنة والهرسك. وبثت الإذاعة بياناً من القيادة العسكرية للمدينة جاء فيه أن الطرف الصربي لم يلتزم مطلقاً وقف النار وأن هجومه بالمدفعية والمشاة والطائرات يستمر من دون توقف منذ أيار/مايو الماضي.

«وذكرت القيادة أن الصرب استطاعوا في الأيام القليلة الماضية احتلال قرى بيلاجيتشيو وتوليس وسلاتينا وسكوجيتش مكملين بذلك طوقهم على غرداجاتش. كما قطعت قوات من الجيش الاتحادي سابقاً بمساعدة ميليشيات من القرى الصربية في المنطقة الطرق إلى مدن بريتشكو وبوزانسكي شاماتس

وموريتشا وتوزلا، لمنع وصول الإمدادات إلى غرداجاتش.

ووصف بيان القيادة الدمار الذي يلحقه القصف الصربي بالمدينة التي تعاني من نقص في المواد الغذائية والطاقة أصلاً، والتي يعيش فيها إلى جانب سكانها حوالي ٢٠ ألف لاجيء من المناطق المجاورة. وأشار إلى أن القصف يستهدف الآثار الدينية والحضارية وأن عشرين مسجداً دمرت إضافة إلى كنيستين كاثوليكيتين. كما طال القصف مدارس المدينة ومستشفاها ومرافقها الصناعية. فيما أزال الصرب من الوجود ١٢ قرية إسلامية من محيط المدينة وأتلفوا المحاصيل والمعدات الزراعية.

ووجه البيان نداء إلى الأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامي والمجموعة الأوروبية للعمل على رفع حظر تصدير السلاح إلى البوسنة لتمكين مدن مثل جرداجاتش من الدفاع عن نفسها أمام الهجمة البربرية التي يشنها الصرب على المسلمين والكروات».

٣

والمهم بعد هذه الوقائع وهذا النداء الذي لم يجد لدى مجلس الأمن الأوروبي آذاناً صاغية، أن المساحة التي خصصت لبقية هذا الخبر حوت عنواناً يقول: خيبة تركية لرفض مجلس الأمن رفع الحظر على إمدادات الأسلحة إلى البوسنة، وصف فيه السفير مصطفى أكسين مندوب تركيا الدائم لدى الأمم

المتحدة وعضو لجنة الاتصال المنبثقة عن منظمة المؤتمر الإسلامي والمكلفة بملف البوسنة، وصف فيه استمرار الحظر العسكري على البوسنة بأنه «دعوة للصرب إلى الاستيلاء على الأرض والاستمرار في التطهير العرقي وإنشاء الصرب الكبرى عبر استخدام القوة العسكرية» ولكنه مع شديد الأسى أبدى تخوفه من «أن تستخدم العناصر المتطرفة ما يجري في البوسنة لغاياتها الخاصة، فالدعوة إلى الجهاد خطيرة، وليس من المفيد إحياء مشاعر القرون الوسطى» على حد قوله!!

قلت: إذا كان هذا الكلام يعبر عن رأي منظمة المؤتمر الإسلامي، حتى كأن القرون الوسطى لا علاقة لها بأحقاد الصرب، وكأن الدعوة إلى الجهاد ضد هؤلاء جريمة... فماذا تفعل هذه المنظمة العتيدة اليوم لألبانيا، علماً بأن الرئيس الألباني صالح بريشا هو الذي كان وراء انضمام بلاده إلى هذه المنظمة في شهر كانون الأول – ديسمبر ١٩٩٢ وأن هذا الانضمام هو الذي حمل البابا يوحنا بولس الثاني فيما يبدو على أن يقوم بزيارة ألبانيا في ٢٥ نيسان – ابريل ١٩٩٣. علماً بأن المسلمين يشكلون ٧٠ بالمائة من سكان ألبانيا، كما أنهم يشكلون ٩٠ بالمائة من سكان إقليم كوسوفو الخاضع للصرب، وأن جميع المراقبين متفقون على أنه لا خوف من تنامي ما يسمونه الأصولية الإسلامية في ألبانيا «نظراً لأن الشعور الديني عند المسلمين سطحي بعد حكم شيوعي واستبدادي وعزلة عن

العالم استمرت خمساً وأربعين سنة» على حد قول بعض المعلّقين. بالإضافة إلى أن التعايش الديني بين الأديان الثلاثة الإسلام والكاثوليكية والأرثوذكسية قائم ومستمر قبل أنور خوجا الديكتاتور الراحل الذي حكم أربعين عاماً والذي فعل كل ما بوسعه لإلغاء الأديان وإعدام الداعين لها!! فقد كان مغرماً بالمقولة التي صارت أقرب إلى شعار حكمه وهي أن دين الشعب الألباني هو الألبانية. وقد قام بتنفيذها فعلاً عام ١٩٦٧ حين ألغى جميع الأديان في البلاد. وفي عام ١٩٧٥ وكما حدث في بلغاريا مورست ضغوط شديدة على السكان لتغيير أسمائهم! وأعلن خوجا أن «المواطنين الذين يحملون أسماء غير مناسبة وألقاباً مسيئة من وجهة النظر السياسية والأيديولوجية والأخلاقية!!! عليهم أن يغيروها» وكان هذا التحذير موجهاً في المقام الأول إلى المسلمين والكاثوليك. وفوق هذا كله كان يعتبر الدين وباء سارياً ينتقل عن طريق القوات الغازية، وشبه الأديان بالفاشية وتجار الحروب وقام بإحراق المساجد والكنائس، وما بقي منها استعمل كمقاهٍ أو مستودعات لحفظ الحبوب وغيرها.

٤

أعود لمتابعة الحديث عن الموقف الأوروبي اللئيم والماكر من تسليح البوسنة، والذي عبّر عنه اللورد أوين أحد رئيسي مؤتمر السلام الخاص بيوغوسلافيا في المقابلة المنشورة بصفحة جريدة

«الحياة» المشار إليها ذاتها... في مناسبة قادمة – إن شاء الله – مكتفياً هنا بالإشارة إلى الجذور الفكرية للمسألة الألبانية، كما عبر عنها أنور خوجا، والسياسية التي ولدت مع انحسار الوجود العثماني في البلقان.

تم انحسار هذا الوجود بعد الهزيمة التي لحقت بالعثمانيين في الحرب البلقانية عام ١٩١٢ – ١٩١٣. وانسحابهم من معظم ما كان قد تبقى بيدهم من جنوب شرقي أوروبا، ومنها ألبانيا بحدودها الحالية. انعقد مؤتمر لندن عام ١٩١٣ لترتيب الأوضاع في هذه المنطقة. وتم فيه تقسيم السكان أو الأراضي ذات الغالبية من السكان الألبان إلى نصفين أحدهما دولة ألبانيا التي تم الاعتراف في المؤتمر المذكور باستقلالها وحدودها القائمة حتى الآن. وفرض عليها النص على علمانية الدولة، وعلى تبديل الحرف العربي الذي كانت تكتب به اللغة الألبانية إلى الحرف اللاتيني – وهما الأمران اللذان قام بهما أتاتورك فيما بعد – ونعتقد أن هذا الإجراء الذي قصد به إضعاف الروح الإسلامية والقضاء على الروابط مع العالم العربي والإسلامي كان ممهداً للحكم الشيوعي الذي قاده أنور خوجا فيما بعد.

أما النصف الثاني وهو إقليم كوسوفو وما حوله، فقد ضم إلى بلغراد باعتباره – كما قالوا – «مهد الأمجاد الصربية» وهذا الضم أو الإلحاق هو الذي جعل الصراع الألباني مع الصرب

يدخل مرحلته الجديدة، والتي لم تحسم حتى الآن... نظراً لتطور الأوضاع في ألبانيا في الاتجاه الشيوعي الذي أشرنا إليه، ودخول يوغوسلافيا في وضع قريب أو مماثل في ظل حكم جوزيف بروز تيتو.

على الرغم من تعاون القوات الشيوعية في كل من يوغوسلافيا وألبانيا إبان الحرب العالمية الثانية والذي توج بانتصارها عام ١٩٤٥. وحاول تيتو كسب ود الألبان وتشجيعهم على الإقامة في كوسوفو «سواء بفسح المجال لعودة الذين كانوا قد نزحوا عن الإقليم في أوقات سابقة أو المعارضين لنظام أنور خوجا... مع عدم التهاون مع أي نزعة قومية في كوسوفو تتطلع نحو الوحدة مع ألبانيا» على حد قول بعض المؤرخين. وبغض النظر عن التطورات التي حصلت فيما بعد، فإن أصغر شرارة كما يقول الرئيس الألباني صالح بريشا في كوسوفو سوف تثير رداً من الألبان الذي يعيشون في مقدونيا «٤٠ بالمائة من السكان» يرغم ألبانيا على التدخل لحماية هذه الأقليات!

هل نستطيع أن نرى في هذه الكلمات التي قالها الرئيس الألباني عام ١٩٩٣ ما يفسر طرفاً من المحاولة القائمة أو التي بدأت حالياً لتمزيق ألبانيا نفسها؟ يبدو ذلك خصوصاً وأن الرئيس بريشا عبّر في العام المذكور كذلك عن خشية تيرانا من أن ينقل الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيفتش النزاع إلى

جنوب البلاد حيث توجد الأقليات الدينية والعرقية يقول الرئيس صالح بريشا في المقابلة التي أجراها معه بعض الصحفيين ونشرت بتاريخ ١٢حزيران يونيو ١٩٩٣: إن ألبانيا ستفعل كل ما بوسعها لعدم الرد على الاستفزازات.

ويضيف وهو جالس وراء مكتبه والقلق باد على وجهه – كما يصفه الصحفي – «إن ميليوسيفتش هو المعتدي، لكننا نستطيع المقاومة، وإنني واثق من ذلك».

واليوم بعد نحو أربع سنوات نقول مع الرئيس صالح بريشا إن ميلوسيفتش الصربي السفّاح الذي كان وراء جرائم الصرب في البوسنة هو المعتدي، ولكن نتساءل عن مدى وثوق بريشا من قدرته على المقاومة.